المصطلحات المفاتيح في تأسيس علم البلاغة عند المتقدمين

Key terminology in establishing the science of rhetoric in the ancients

د/عمر بوقمرة: dr.bouguemra@gmail.com

جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف، الجزائر.

تاريخ الاستلام2019/03/06 تاريخ القبول: 2019/05/23 تاريخ النشر: 201/10/09

الملخص:

المصطلح باب العلم ومفتاحه، ولا أظن أن أي فرع من العلوم يمكنه أن يستغني عنه، وكيف يمكن له الاستغناء عنه وهو لا يمكنه ادعاء الاستقلالية العلمية إلا إذا تمكن من جمع قدر كاف منها؛ تنير أبوابه ومباحثه.وعلم البلاغة العربية كبقية العلوم له بدايته، ومراحل تطوره، وله مصطلحاته التي رافقت تلك البدايات الأولى. وهذا البحث يروم دراسة بعض المصطلحات الرئيسية التي ظهرت في الدرس البلاغي، وصارت فيما بعد عناوين مهمة فيه، من خلال الوقوف عليها من حيث النشأة، والدلالة، والتطور، والظروف التداولية المصاحبة لذلك.

الكلمات المفتاحية: النظم؛ الفصاحة؛ البلاغة؛ الإعجاز؛ الصِّرفة.

Abstract:

The terminology is the opening of a science and any branch of it, and how can it dispense of it and it cannot claim scientific independence, the Arabic rhetoric sciences has its beginning, development stages. This research aims to study some of the major terms of the rhetorical lesson, and lately became important terms.

Keywords: System; Eloquence; Rhetoric;Inability;prohibition.

المؤلف المرسل: د/عمر بوقمرة: dr.bouguemra@gmail.com

مقدمة:

لم يظهر مصطلح النظم في العصر الجاهلي، رغم تمييزهم الشاعر عن الآخر في فصاحة اللسان، وحسن البيان، فكانوا يطلقون أحكاما عامّة؛ لا تتكلم عن النظم ولا كيفية ترتيب أجزاء الكلام ترتيبا فنيا، ولاعن تفسير التأليف تفسيرا علميا. فقالوا مثلا : أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب، وزهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب. وهي كما نرى كلها أحكام لم تعلل بخصائص أسلوبية تجعل هذا النقد قابلا للنقاش والبحث عن مواطن الجودة والاستحسان." لقد أعجزهم القرآن الكريم وحيّر عقولهم، والذي أعجزهم منههو نظمه البديع، وتأليفه العجيب، ولكنهم لم يفصِّلوا القول في النظم، ولم يشرحوا كيف يكون، وما أسراره ؟... لقد كانوا يعرفون من القواعد البلاغية والأسس النقدية،التي يقوم عليها تأليف الكلام الجميل، وتمييز جيده من رديئه، ما نعرف وفوق ما نعرف، ولم يحتاجوا إلى تدوينها؛ لأنها كانت مركوزة في طبائعهم"[1].

ولو حصل شيء من ذلك لوصل إلينا؛ لأن القرآن تحداهم وأثار حميتهم، وكان للبيان العربي مكانة عالية في أنفسهم، وكان أعظم وأجل من أن يخونوه،ولو أن نفوسهم حدثتهم بشيء يقولونه في القرآن ونظمه لانبرى لهم النبي – صلى الله عليه وسلم – وصحابته – رضوان الله عليهم –، وهم من فصحاء العرب، ولأُثِر عنهم كلام في قواعد النظم والبلاغة، ولكن لم يحدث شيء من ذلك[2].

انقضى عصر صدر الإسلام، والعصر الأموي، ولم يفِد إلينا شيء يدل على أن أحدا قد اشتغل بتفسير نظم الكلام وإبراز خصائصه البيانية،وفي العصر العباسي اختلط الأعاجم بالعرب، وتوسعت مستعمرات اللغة العربية، وكانت تلك الفتوحات اللغوية على حساب النقاء اللغوي؛ ففشا اللحن، وضعفت الملكات،ومسّت الحاجة للمحافظة على سلامة الذوق البلاغي، كمفتاح لفهم وتذوق القرآن خاصة، و كلام العرب عامة؛ففزع علماء الإسلام إلى كتاب الله يتدارسونه،ففسروا آياته، وبحثوا أسلوبه وبيانه،وبينوا محكمه من متشابهه، ومقيَّده من مطلقه، ومفصَّله من مجمله، وخاصّه من عامّه،وحلاله من حرامه؛ يردون عنه افتراء المفترين،وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين،الذين بدأوا يجاهرون بمطاعنهم في كتاب الله، ويشككون في إعجازه،وكانوا يستخْفون بها من قبل خوفا من بطش الخلفاء الراشدين،ومن تلاهم من خلفاء بني أمية.

وخلف من بعدهم خلفأضاعوا الخوف والستر، فجاهروا بمعتقداتهم الفاسدة وآراءهم المرذولة، وبثوا شكوكهم في الأندية والمجالس دون خوف أو وَجَلٍ، بل وعلى مرأى ومسمع من خلفاء بني العباس،الذين تسامحوا في غير ما يعرض لسلطانهم، وأعانهم على ذلك انتشار الكتب المترجمة عن اليونان وماحوته من منطق، وفلسفة، وجدل؛ فكثرت المطاعن في القرآن، وأوشكت الشبهات أن تأخذ طريقها إلى النفوس الضعيفة، خاصة إذا كان مصدرها من ينتحلون الإسلام من الفرق الكلامية؛ فشرع علماء الإسلام أقلامهم ونشروا صحفهم لتأليفالكتب والرد على شبهاتهم،وقد نالنظم القرآن الحظ الأوفر بعدّه أحد أبرز وجوه الإعجاز القرآني[3].إذن" لم تتضح فكرة النظم إلا بعد نزول القرآن الكريم، بل عندما بدأ التأليف في وجوه الإعجاز، حيث أثيرت فكرة النظم كأحد وجوه الإعجاز، رغم الخلاف فيما إذا كان نظم القرآن هو من جنس نظم كلام الناس، أم أنه نسيج خاص به، ثم أصبحت هذه الفكرة حجر الزاوية في كتابات الإعجاز والبلاغة "[4].

لقد أثر القرآن بنظمه العجيب، وتركيبه الغريب، في صقل الذوق البلاغي بذلك التحدي الصارخ؛ فكان الإعجاز القرآني هو السبب المباشر في البحث عن النظم القرآني، بعدِّه متحديا لما اعتاده العرب في أساليب كلامهم بشتى أصنافه من شعر ونثر.ويرى صالح بلعيد أن سيبويه – رحمه الله – (ت 175 هـ) كان في كتابه يشير إلى النظم – أي نظم الكلام – بكلمات قريبة منه، إذ يقول: " وفي دراستي الكرونولوجية لما عرفه مصطلح النظم من تطور، أجد سيبويه (ت 175 هـ) عند حديثه عن النظم ينظر إلى المعاني الدلالية والبلاغية، ولم يشر إلى مصطلح النظم، لكنه لمح في كثير من المواضع بكلمة التأليف التي يعني بها: النظم انطلاقا من الألفاظ المفردة (ألفاظ) لضمها في شكل كتلأو مجموعات(كلام مفهوم – تركيب–)، واستعمل قواعد العربية من كلام العرب، أي الكلام الحسن أو المستقيم، منطلقا مما يتفوّه به العرب السليقيون"[5].

قضية الإعجاز تشغل طوائف كثيرة من أهل العلم:

لم تفرد قضية الإعجاز بالبحث والدراسة في أول الأمر،بل عولجت مع غيرها من المسائلالتي نشط فيها الكلام، خاصة تلك المتعلقة بالنبوة والمعجزة، فقد شارك في تشييد صرحه وبنائه طوائف مختلفة من العلماء منهم المتكلمونأمثال: بشرابن المعتمر(ت210هـ)،والجاحظ(ت255هـ)،والواسطي(ت306هـ)،والرمّاني(ت387هـ)،والخطّابي(ت388هـ)،والباقلاّني(ت403هـ)،والقاضي عبد الجبار(ت410هـ)، وعبد القاهر الجرجاني(ت471هـ)، وشارك فيه من اللغويين؛ ابن قتيبة

(276هـ) صاحب كتاب "تأويل مشكل القرآن"، وقد صنفه للرد على الملاحدة الذين طعنوا في القرآن، وزعموا أن في نظمه فسادا،والمبرد(285هـ) صاحب كتاب: "الكامل"،وقد تحدث فيه عن الاستعارة، والالتفات، والإيجاز، والإطناب، والتشبيه وغيرها. وألف ثعلب(291هـ) كتيبا سماه"قواعد الشعر" ذكر فيه بعض وجوه البلاغة، كالمبالغة، وسمّاها "الإفراط والإغراق"،والكناية وسمّاها "لطافة المعنى"،والاستعارة، والمطابقة، والطباق وغيرها.

كما شارك بعض المتفلسفة مثل قدامة بن جعفر(337هـ)،صاحب كتاب "نقد الشعر"، وعدد من النقاد المشهورين أمثال:ابن طباطبا(322هـ)في كتابه "عيار الشعر"،والآمدي (ت371هـ)في كتابه "الموازنة بين أبي تمام والبحتري"،وعلي بن عبد العزيز الجرجاني(ت392هـ) في كتابه "الوساطة بين المتنبي وخصومه"، وعدد من المتأدبين أمثال:أبي هلال العسكري(ت395هـ)في كتابه"الصناعتين"،وابن رشيق القيرواني(ت463هـ)في كتابه "العمدة في صناعة الشعرونقده"، وابن سنان الخفاجي(ت466هـ)في كتابه"سر الفصاحة"[6].

وحتى النحاة كانوا يبدون في تضاعيف شروحهم للشواهد القرآنية والشعرية بعض الملاحظات البلاغية، التي أسهمت في التأسيس لعلم البلاغة،ولكن مع نهاية القرن الثالث أخذ اللغويون"يتوسعون في المباحث اللغوية الخالصة منحازين عن مباحث البيان والبلاغة، كأنهم رأوا – محقين- أنها ميدان آخر غير ميدانهم. أما المتكلمون فقد ظل نشاطهم في هذه المباحث متصلا، وكان من أهم ما وصلهم بها أنهم عنوا بتعليل إعجاز القرآن وتفسيره بلاغيا"[7]. قد أعانهم على ذلك انفتاحهم على العلوم الأجنبية،خاصة البلاغة اليونانية الوافدة عبر الترجمة،ولو تتبعنا قائمة العلماء الذين أسهموا بجهودهم في تشييد صرح البلاغة، من قريب أو من بعيد، ومن جميع الطوائف، لاستغرق ذلك منا وقتا مديدا، ولسوّدنا صحفا عدة،وليس ذلك مرادنا.وإنما المرام تتبع تلك البحوث التي أُفرِدت للنظم القرآني المعجز، لتتحول مع تكوثر البحث وتشعبه إلى علم قائم بذاته، ألا وهو علم البلاغة.

مؤلفات بمصطلح نظم القرآن تلفها يد النسيان:

ظهرت في القرن الثالث الهجري مؤلفات في الإعجاز تحمل في الغالب عنوان نظم القرآن، أولها: **"نظم القرآن"للجاحظ(ت 255 هـ)**،فهو وإن نُسب إليه القول بالصرفة، إلا أن الرأي الصريح المعروف عنه هو أن القرآن معجز بنظمه وتأليفه، إذ يرى أن القرآن خالف جميع الكلام الموزون والمنثور. يقول مصطفى صادق الرافعي: " فصنف أديبنا الجاحظ المتوفى سنة 255هـ كتابه (نظم القرآن)، وهو فيما ارتقى إليه بحثنا أول كتاب أفرد لبعض القول في الإعجاز، أو فيما يهيئ القول فيه "[8]. وهو كتاب مفقود، لكن عنوانه يدل على محتواه والغاية التي ألف لأجلها. وفيه يقول الجاحظ :" ولي كتاب جمعت فيه آيات من القرآن الكريم لتعرف بها فضل ما بين الإيجاز والحذف، وبين الزوائد، والفضول، والاستعارات."[9].

وقد قلّد الجاحظ في هذه التسمية جمع من العلماء، فألف **أبو بكر عبد الله ابن أبي داود السجستاني (ت316هـ) كتابا سماه "نظم القرآن"**،وكذلك فعل **أبوزيد البلخي:أحمد بن سليمان (ت322هـ)**، **وأبو بكر أحمد بن علي المعروف بابن الإخشيدي** المعتزلي(ت326هـ)[10].وفي أواخر القرن الثالث ظهر أول كتاببعنوان **"إعجاز القرآن ونظمهوتأليفه"لأبي عبد الله بن يزيد الواسطي المعتزلي (ت 306 هـ)** ،وتذكر بعض كتب التراجم أن عبد القاهر الجرجاني قد شرحه مرتين،الشرح الأول سماه "المعتضد الكبير"،والثاني سماه "المعتضد الصغير"[11]؛ إلا أنه لم يصل إلينا،

وهو" أول كتاب وضع لشرح الإعجاز، وبسط القول فيه على طريقتهم في التأليف... ولا نظن الواسطي بنى إلا على ما ابتدأه الجاحظ، كما بنى عبد القاهر (في دلائل الإعجاز) على الواسطي"[12]، وهو من الكتب التي لا نعلم عنها غير أسمائها المجردة، ولم يبق من الكتب المؤلفة في القرن الرابع الهجري حول الإعجاز القرآني غير ثلاثة كتب:أحدها للرماني، وثانيها للخطابي، وثالثها للباقلاني[13].

وإذا كانت المصنفات الأولىالتي تحمل عنوان "نظم القرآن" تشي بأن مؤلفيها قد تيمموا البحث البلاغي احتجاجا لنظم القرآن المعجز،قد أتت عليها يد الضياع،ومن ثم لا نملك الحكم على صنيعهم فيها، فلننظر في الكتب المتبقية معالم لمناهجهم على طريق البحث البلاغي في تلك المرحلة الحاسمة من مراحل تشكل علم البلاغة.

من مصطلح نظم القرآن إلى مصطلح إعجاز القرآن:

بعد مرحلة التأليف في نظم القرآن وضياع كل المؤلفات التي وسمت بهذا المصطح، جاءت مرحلة أخرى وظفت مصطلحا آخر وهو إعجاز القرآن، ومنها:

1- النكت في إعجاز القرآن للرماني:صاحب هذه الرسالة هوعلي بن عيسى الرماني[14] المعتزلي (ت387 هـ)، ألفها جوابا على سؤال لشخص طلب منه تفسير تلك النكت باختصار دون تطويل في الاحتجاج، وقد استهل رسالته برد الإعجاز إلى جهاته السبع؛ وهي:"ترك المعارضة مع توافر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافّة، والصِّرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، ونقض العادة، وقياس القرآن بكل معجزة"[15].

والذي يعنينا من رسالته هو ما تعلق منها بالشَّق البلاغي، فبعد أن مهّد للإعجاز بسرد مذاهب القوم تفرغ للنظر في إعجازه من جهة البلاغة،فجعلها ثلاث طبقات:"منها ما هوفي أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة،ومنها ماهو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة؛فما كان أعلاها طبقة فهو معجز وهو بلاغة القرآن الكريم، وما كان منها دون ذلك، فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس...والبلاغة عشرة أقسام وهي:الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة،والتلاؤم، والفواصل،والتجانس،والتصريف،والتضمين،والمبالغة،وحسن البيان"[16]، ثم أتى عليها فشرحها واحدا واحدا، مستشهدا بآيات من القرآن الكريم، ثم عاد فشرح أوجه الإعجاز الستة التي ذكرها في أول الرسالة، وفي هذا إشارة ضمنية إلي قيمة الإعجاز البلاغي، إذ التقديم في البيان والبحث يفيد التقدم في القيمة والمكانة،وجلي أن الرماني قد أضاف لبنات مهمة على درب البحث البلاغي،انضافت إلى جهود السابقين، فقد حدد بعض فنونها وشرحها شرحا وافيا شافيا.

وما يؤخذ على الرماني في كتابه هو أنه جعل الصِّرفة وجها من وجوه الإعجاز، ورغم عدم شرحه لها ودفاعه عنها، إلا أن مجرد الذكر والتنويه يدلان على المذهب. وقد قال فيها:"وأما الصرفة فهي صرف الهمم عن المعارضة،وعلى ذلك يعتمد بعض أهل العلم، في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن معارضته، وذلك خارج عن العادة خروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي تظهر منها للعقول"[17]؛ وهذا أمر يخالف ما أجهد نفسه في الكشف عنه وبيانهمن الإعجاز البلاغي لدرجة التناقض؛ فكان كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا.

2 - "بيان إعجاز القرآن " للخطابي: هو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المتوفى سنة(388هـ)، يعد من أبرز علماء أهل السنة.تعرض في رسالته لأقوال من سبقوه بالحديث عن إعجاز القرآن، وكانمنهجه شبيها بمنهج الرماني المعتزلي في عرض البليغ من الكلام والاستشهاد على ذلك بكلام بلغاء العرب، ثم الخلوص

إلى بلاغة القرآن الكريم والمقارنة بين أسلوبه وأسلوبهم[18]. وهذا لا يعني أن الخطّابي لم يأت بجديد في هذا المجال، بل مثلت أفكاره اللغوية شعلة مرحلة عظيمة في قضية النظم القرآني والنظم بصفة عامة[19].

ويمكن أن نلخص تلك الأفكار على النحو التالي:

–ضعَّف وجه الإعجاز بالصرفة:فقال "وهذا وجه قريب إلا أن دلالة الآية تشهد بخلافه، وهي قوله تعالى :﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾.[20]فأشار في ذلك إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد، وسبيله التأهب والاحتشاد، والمعنى في الصرفة التي وصفوها لايلائم هذه الصفة، فدل على أن المراد غيرها[21]، وهو بهذا يفارق من سبقه من علماء الاعتزال أمثال الجاحظ والرماني، الذين ظلت أقوالهم متذبذبة ومتضاربة حول الصرفة.

– تجاوز التقليد في شرح الإعجاز من جهة البلاغة:فبعد أن ضعف وجه الإعجاز بالصرفةذكر الإعجاز الغيبي، وأضاف نوعا آخر من الإعجاز لا يعرفه إلا آحاد الناس وشواذّهم – على حد قوله – وهو الإعجاز التأثيري الإقناعي. يقول عنه:"وفي إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه في القلوب، وتأثيره في النفوس،إذا قرع السمع خلص إلى القلب..."[22]، ولكن الذي نبغي من البحث في هذا المقام هو الإعجاز البلاغي، الذي نجزم أن الخطابي قد تجاوز في شرحه التقليد والظن اللذين جري عليهما سابقوه رغم تسليمهم به؛ ولذلك"صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن في وصفها سائر البلاغات، وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة، قالوا:إنه لايمكننا تصويره ولاتحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام...وقد يخفى سببه عند البحث، ويظهر أثره في النفس حتى لايلتبس على ذوي العلم والمعرفة به...وقد توجد لبعض الكلام عذوبة في السمع، وهشاشة في النفسلا توجد مثلها لغيره منه، والكلامان معا فصيحان،ثم لا يوقف لشيء من ذلك على علّة. قلت: وهذا لا يقنع في مثل هذا العلم،ولا يشفي من داء الجهل به، وإنما هو إشكال أحيل على إبهام[23].

وقد استقر رأيه بعد إنكاره لهذا المسلك على أن السر البلاغي الذي تعذر عن البشر الإتيان بمثله، إنما كان لأمور"منها: أن علمهم لايحيط بجميع أسماء اللغة العربية، التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ،ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها، وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل على الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله. وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم. وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرفوالفضيلة ... وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام. فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير؛ الذي أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا"[24].

إنه بحق أول مؤَلف يتعرض لشرح فكرة الإعجاز بالنظم إيضاحا للإعجاز من جهة البلاغة،الذي قال به جمهور العلماء من أهل النظر من قبله واضعا مِشْرَط البحث على أركان النظم وهي: لفظ حامل،ومعنى عليه محمول، ورباط لهما وناظم،وكل كلام يقوم على هذه الأركان الثلاثة. والقرآن الكريم جاء بأصح المعاني، في أفصح الألفاظ، في أحسن النظوم. "ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق، أمر تعجزعنه قوى البشرفانقطع الخلق دونه"[25]؛ لأنهم عاجزون عن الإحاطة بجميع الألفاظ، وجميع المعاني، وجميع النظوم، حتى لكأنها مجتمعة كلها أمام

أعينهم، حاضرة في أذهانهم، لحظة نظم الكلام؛ فيختارون منها أحسن لفظ لأحسن معنى في أحسن نظم، واضعين كل شيء في موضعه حتى لا يُرى موضع أولى به منه. وإذا كانت الألفاظ وهي نوع واحد من الأنواع الثلاثة يتعذر على الواحد من الناس الإحاطة بها وبفروقها الدلالية؛ فيضع كل لفظ في موضعه الأنسب له وبه،بحيث إذا أبدل مكانه غيره لزم منه أحد أمرين: إما تغير المعنى الذى يكون منه فسادالكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون منه ذهاب البلاغة.

وقد قال بعض العلماء[26] في الأسماء اللغوية وهي ركن واحد من أركان الكلام التي اشترطناها أنه لايجوز أن يحيط بها كلها إلا نبي[27]، وكان عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وهو في ذروة السنام من الفصاحة، يقرأ قوله تعالى:﴿ **وفاكهة وأبا**﴾"[28]فلا يعرف الأبّ، فيراجع نفسه ويقول : ماالأبّ؟ ثم يقول معرضا:إن هذا تكلف منك يا بن الخطاب،وكان ابن عباس – رضي الله عنهما – وهو ترجمان القرآن ووارث علمه يقول : لا أعرف حنانا، ولاغسلين، ولا الرقيم[29].

لقد كانت محاولة رائدة في التنظير للإعجاز البلاغي بطريقة علمية بعيدة عن التقليد الذي لا يقف على العلل والأسباب، لولا أنه لم يكترث لسوق الأمثلة والشواهد القرآنية؛ولو فعل ذلك لأعطى لصنيعه بعدا تطبيقيا رائعايحوز به قصب السبق في مضمار الإعجازالبلاغي،الذي أرجئ إلى فارس آخر بعد قرن من الزمان،وهوعبد القاهر الجرجاني؛ يضاف إلى ذلك شيء آخر أغفله الخطابي، وهو قضية أحوال المخَاطَبين إذ تعد من أخطر قضايا البلاغة،لدرجة أن عرّف المتأخرون بلاغة الكلام بأنها: "مطابقتة لما يقتضيه حال الخطاب، مع فصاحة ألفاظه مفردها ومركبها"[30].وما يقال في تلك الأركان الثلاثة يقال في هذا الركن أيضا، والله جل وعزّ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور،فكان كلامه أتم بلاغة من هذه الجهة أيضا.

3- "إعجازالقرآن" للباقلاني:هوأبو بكر محمد بنالطيب الباقلانيالأشعري(ت403 هـ). ويعد كتابه هذا من أوسع الكتب التي ألفت لبيان إعجاز القرآن في القرن الرابع الهجري،وقداستهل كتابه بالرد على المخالفين بل وعلى كل قول يردُّ الإعجاز أو يحتمل ردَّه، ساعده على ذلك براعته في الجدل والحجاج؛ ما جعل بعض الباحثين المحدثين يحكم بأن كتابه "ليس دراسة قرآنية خالصة للإعجاز كما يفهم من عنوانه، وكما تعِد به مقدمته، بل هي أقرب إلى الجدل الكلامي والمذهبي... بل إنه فيما يختص بالفصول البلاغية التي عقدها لا يفرغ للنظر في البيان القرآني، وإنما يعمد إلى نقل قصائد وخطب طوال من مختار الشعر والنثر، ويتعجل النقد لما ينقده منها « لكيلا يتوهم متوهم أن جنس الشعر معارض للقرآن،فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق»"[31].

أما وجوه الإعجاز عنده فتنحصر في ثلاثة تكررت في كتبه وهي:تضمنه لأخبار الغيوب وذلك مما لا يقدر عليه البشر، وأمية الرسول –صلى الله عليه وسلم – وجهله بقصص الأولين وأنبائهم،وأن القرآن بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعجز الخلق عنه[32]؛ وعلى الرغم من الإطناب والتطويل فإنه لم يستطع تفسير الإعجاز البياني مفصلا واضحا، وترك الباب مفتوحا لمن بعده.

4-مصطلح الفصاحةعند القاضي أبي الحسن عبد الجبار الأسدآبادي: قاضي قضاة الدولة البويهية بإيران أكبرأعلام المعتزلة في عصره(ت 410 هـ). لم يفرد مؤلفا للبحث في إعجاز القرآن، وإنما ألف كتاب "المغني في أبواب التوحيد والعدل"،وخصّالجزء السادس عشر منهللإعجاز القرآني، وهو يقع في 348 صفحة،أشبع فيه مسألة الإعجاز بحثا[33].وقد استطاع أن يفصح عما لم يستطع الباقلاني الإفصاح عنه من بيان معنى النظمالذي هو مناط الإعجاز

القرآني؛ فقال: " اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولابد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع وليس لهذه الأقسام رابع ... فإذا صحت هذه الجملة، فالذي تظهر به المزية ليس إلا الإبدال (الاختيار) الذي تختص به الكلمات، أو التقديم والتأخير الذي يختص بهالموقع،أو الحركات التي تخص الإعراب، فبذلك تقع المباينة "[34].

ورغم هذه المحاولات من قبل هؤلاء العلماء من معتزلة وأشاعرة لم يستطيعوا أن يبلوروا فكرة النظم كنظرية لغوية مستقلة، حتى أهَلَّ في القرن الخامس الهجري علَم فذّ، عُرف بتوقد الذهن وحِدّة البصر؛ فاستطاع أن يضع النظم في قوالب قواعدية وأسس نظرية، من خلال كتابه " دلائل الإعجاز في علم المعاني".

5- مصطلحا النظم ومعاني النحو عند عبد القاهر الجرجاني:مضى القرن الرابع الهجري ومعه تلك المحاولات الجادة، التي ظن كثير من أصحابها أنهم قد أتوا على هذا العلم وقالوا فيه الكلمة الأخيرة؛فلم يتركوا لمن بعدهم شيئا،فجاء في القرن الخامس الهجري علم من أعلام الأشاعرة، وهو عبد القاهر الجرجاني(ت471هـ)، فعرض للإعجاز كأن لم يبحث من قبل، وبدأ القول فيه وأعاده كمن يرى الميدان خاليا ليس فيه سالك، بحيث احتاج الأمر إلى وضع كتابه الموسوم ب"دلائل الإعجاز"[35]، واستطاع أن يبلور فيه نظرية (علم المعاني) الذي أطلق عليه مصطلح النظم، الذي كان يشيع عند الأشاعرة، كما استطاع أن يبلور من خلال كتابه أسرار البلاغة(نظرية علم البيان)،وإلى هنا لم تكن البلاغة قد تسربلت بتلك التقسيمات التي نعرفها الآن من معاني وبيان وبديع؛ ولذلك فالجرجاني لم يجعل لكل قسم منها دائرة خاصة به، وإنما كانت ألفاظ البلاغة، والبراعة، والفصاحة، والبيان، والبديع، كلها بمعنى واحد[36].

"لقد انتهى عبد القاهر من خلال عرضه لنظريته إلى أن ركز مناط الجودة في الكلام للصورة التي يرسمها النظم، بما يقوم عليه من معاني النحو المتخيرة، والصورة التي تشكلت في نفس المتكلم بأصباغ العلاقات بين معاني الكلام التي رتبت في النفس ترتيبا خاضعا لهذه العلاقات"[37]، ولاجرم أن الجرجاني قد أفاد من جهود سابقية، فقد كان الجاحظ أول واضع لهذا المصطلح (النظم) معللا به إعجاز القرآن، وشاع هذا المصطلح عند الأشاعرة على حين استبدله المعتزلة بمصطلح (الفصاحة)، ومضوا يردّونها إلى حسن الألفاظ وحسن المعاني، حتى جاء القاضي عبد الجبار فلفت إلى أن الفصاحة –وهي عنده مرادفة للنظم عند الأشاعرة –لا ترد إلى اللفظ ولا إلى المعنى، بل ترد إلى ضم الكلمات على نحو مخصوص، يقوم على تخير الألفاظ ومواقعها وإعرابها.

ولكنلم يشأ أن يعترف بفضل القاضي عبد الجبار – حسب زعم محمود أحمد نحلة – الذي يبدو أنه كان الشعاع الهادي له إلى وضع هذه النظرية. يقول محمود أحمد نحلة : " ولقد وقف الرجل على مقالة القاضي عبد الجبار في رد الفصاحة إلى ضم الألفاظ بعضها على بعض على نحو مخصوص، وكانت فيما يبدو الشعاع الهادي إلى وضع نظريته، لكنه لم يشأ أن يعترف للرجل بفضل السبق حذر أن يذهب بالفضل دونه، أو يقول قائل:" لو لم يقف على مقاله القاضي عبد الجبار ما وصل إلى ما وصل إليه ، فعرض عبد القاهر رأي القاضي عبد الجبار دون أن يسميه مشيرا إلى أنه قول مجمل غير كاف"[38].

ومهما يكن الأمر فإنه يمكن أن نعد كتاب الدلائل من المؤلفات البلاغية القيمة، وهو خير ما كتب في باب النظم، لكن صلته بالإعجاز القرآني غير وثيقة ومباشرة؛إذ نظر في أساليب البلاغةالعربية وهي في تقديره الوسيلة إلى فهم

القرآن الكريم المنزل بلسان عربي مبين؛ومع ذلك لم يمض بعيدا في الاحتجاج لهذا الوجه من الإعجاز تدبرا في أسرار النظم القرآني المعجز.لقد قدم دراسة بلاغية لأسرار العربية، ولم يقدم دراسة قرآنية للإعجاز البلاغي، وهي مباحث لا تتصل بإعجاز القرآن إلا على جهة التمهيد والتوطئة.وإذا كنا نعتب على المتأخرين تلمسهم أسرار البيان العربي في جيّد الشعر والنثر من كلام البلغاء دون القرآن الكريم وهو كتابها الأكبر؛ الذي لا يمكن تذوق العربية من دونه، فمن باب أولى أن نعتب على كتاب يتناول مباحث البلاغة بعيدا عن القرآن وهو يقدم هذه المباحث تمهيدا لفهم نظم القرآن ودلائل إعجازه[39].

علم المعاني أهم علوم البلاغة:

مضى الجرجاني بعد أن حدد وظيفة البلاغة وهي الاستدلال على إعجاز القرآن الكريم، ونقل بذلك القضية إلى مجال البحث البلاغي بمعزل عن القرآن نفسة، ومهّد السبيل لمن جاء بعده؛ فأفردوا البلاغة بالدرس آملين أن تبقى الوسيلة لفهم المعجزة القرآنية. وتفرقت دروب الباحثينبعده فمنهم من لزم غرزه،و سار على منهجه، فأتم ما بدأه كما فعل الزمخشري(ت538هـ)،إذ "طبّق ما قدمه عبد القاهر الجرجاني على كتاب الله، ولم يكتف بذلك التطبيق بل عمل على استكمال المباحث التابعة"[40]؛ ومنهم من رأى أن الدلائل يحتاج إلى ترتيب وتهذيب كالفخر الرازي(ت606هـ) الذي ألف كتابه "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز"؛ ومما قاله في مقدمته:"ولكنه رحمه الله لما كان مستخرجا لأصول هذا العلم وأقسامه وشرائطه وأحكامه، أهمل رعاية ترتيب الفصول والأبواب، وأطنب في الكلام كل الإطناب،ولما وفقني الله تعالى لمطالعة هذين الكتابين التقطت منها فوائدها ومقاصد فرائدها، وراعيت الترتيب مع التهذيب، وضبطت أوابد الإجمالات في كل باب التقسيمات اليقينية، وجمعت متفرقات الكلم في الضوابط العقلية، مع الاجتناب عن الإطناب الممل، والاحتراز عن الإيجاز المخل"[41]؛ومنهم من اكتفى بما أوحي به الجرجاني من جعل المباحث البلاغية مطية لفهم الإعجاز والاستدلال عليه؛ فاستقل بالبحث البلاغي بعيدا عن الإعجاز وقضاياه، كما عزل البلاغة عن معاني النحو، على الرغم من أن الجرجاني قد أجهد فكره في التدليل على أنها داخلة في بلاغة النظم، وزعيم هذا الاتجاه هو السكاكي (ت626هـ) حين ألف كتابه "مفتاحالعلوم"، حيث صاغ ما ورد عن الجرجاني والزمخشري –مستعينا باختصار الفخر الرازي– بطريقة منطقية خالصة، وكانت العناية كل العناية موجهة إلى الصنعة البلاغية، بعيدا عن الشواهد القرآنية، فكانت النتيجة أن جمدت البلاغة وأزهقت روحها، وتحولت إلى جملة من القواعد الجاهزة الجافة.

وهكذا أخذت قضية الإعجاز تنحصر تدريجيا في الشروح والمختصرات والحواشي التي كانت تدور كلها حول مفتاح السكاكي، إلى أن انزوت في كتب علوم القرآن والتفسير مؤذنة ببداية مرحلة من مراحل البلاغة لم يجد لها النقاد وصفا أنسب من لفظ الجمود، الذي لازمها في الزمان من ذلك الحين إلى وقتنا الحاضر، وفي المكان من الخليج إلى المحيطو لا حول ولا قوة إلا بالله.

خاتمة البحث:

- النظم هو سرّ التحدي القرآني، وعن مجاراته عجزت العرب وأَبْلَسَت، وعليه يكاد ينعقد الإجماع، وهو متوافر في كل آية وسورة من كتاب الله؛ وذلك أن الله تحدّاهم بأن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله مفتريات، أو بسورة، ولم يحدد سورة بعينها؛ بخلاق بقية أنواع الإعجاز التي قد توجد في سورة دون أخرى، أو آية دون أخرى، كما هو الحال في الإعجاز العلمي، أو الإخبار بأحوال الأمم الغابرة.

- لم يظهر مصطلح النظم في العصر الجاهلي؛ على الرغم من تلك المساجلات والمنافرات الشعرية التي كانتجري في أسواقهم ونواديهم؛ فيُفَضَّل شاعر على آخر، أو قصيدة على أخرى، وليس ذلك في الحقيقة إلا تفضيل نظم على نظم، ولعلهم لم يحتاجوا إلى التفسير والتعليل لأن تلك القواعد كانت مركوزة في طبائعهم، وليس من بينهم من يحتاج إلى البيان.
- يجب أن نعترف أن القول بالصِرفة الذي تولّى كبره أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار بن هانئ النظام المعتزلي (ت221هـ)، والشريف المرتضى الشيعي (ت436هـ) قد ألهم قرائح العلماء للرد عليهما؛ فنشطت بذلك حركة البحث في الإعجاز – ورب ضارّة نافعة –، الذي تشاركت فيه طوائف كثيرة من أهل العلم وعلى رأسهم المعتزلة والأشاعرة؛ إلا أن المعتزلة آثروا مصطلح الفصاحة بدل النظم؛ وحتى مطاعن الملاحدة في كتاب الله وإثارتهم الشبهات حوله كان له نصيب من التحفيز.
- نشأت البلاغة وترعرعت في أحضان القرآن الكريم، كيف لا و هو كتابها الأكبر منه بدأت وإليه تعود؛ ولذلك نعتقد أن عبد القاهر الجرجاني وإن مهّد سبيل البحث في نظم القرآن وذلّلهُ نظريا؛ فإنه لم يقدم دراسة بلاغية وافية لأسرار نظم القرآن؛ ودليل ذلك أن الناظر في كتابه دلائل الإعجاز لا يكاد يعثرإلا على آيات معدودات، وحتى الذين جاءوا من بعده لم يعمدوا إلى اختبار تلك النظرية تطبيقا على القرآن الكريم باستثناء محاولة الزمخشري؛ بل كان الاتجاه السائد يجنح إلى الإيغال في التنظير على حساب الممارسة والتطبيق والتذوق؛ فكانت النتيجة الحتمية أن فُصلت البلاغة عن معينها الأوّل، وصارت قوالب جاهزة وجافة، وذلك ماحدث مع السكاكي في مطلع القرن السابع الهجري، واستقلّت علوم القرآن والتفسيرببحث الإعجاز واتسع خرق البلاغة على أبناء العربية، فلم يقدروا على ترقيعه حتى اليوم، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الإحالات:

1 عبد العزيز عبد العاطي عرفة:من بلاغة النظم القرآني دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني،عالم الكتاب، بيروت، لبنان،الطبعة الثانية،1984م،الجزء الأول،ص9.

2 ينظر: المرجع نفسه، الجزء الأول،ص9.

3 ينظر: الباقلاني أبوبكر محمد بن الطيب: إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر،د- ت،د- ط الباقلاني: إعجاز القرآن،ص7-8.

4 حمدان حسين محمد: التفكير اللغوي الدلالي وتحديات الغزو الثقافي الغربي، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، الطبعة الأولى، 2002م، ص 211.

5 صالح بلعيد: نظرية النظم، دار هومة ، الجزائر، الطبعة الأولى، 2002م، ص 90.

6 ينظر:وليد محمد مراد:نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني،دار الفكر دمشق، سورية، الطبعة الأولى،1983م،ص21.

7 شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، الطبعة الحادية عشر،ص63.

8 مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثامنة، 2005م،ص 106 .

9 صالح بلعيد: نظرية النظم، ص 123.

10 ينظر الباقلاني: إعجاز القرآن، ص10.

11 ينظر :صالح بلعيد: التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند عبد القاهر الجرجاني،ديوان المطبوعات الجامعية،بن عكنون،الجزائر،1994م،ص11.

12 مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 106.

13 ينظر:الباقلاني: إعجاز القرآن، ص10.

14 وكان يعرف أيضا بالإخشيدي نسبة إلى شيخه:ابن الإخشيدي،والورّاق لأنه كان يحترف الوِراقة.

15 شوقي ضيف:البلاغة تطور وتاريخ،ص103.

[16] الرماني والخطابي والجرجاني: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن في الدراسات القرآنية والنقد، حققها وعلق عليها: خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، دار المعرفة ،مصر، الطبعة الثالثة، 1976م، ص75-76.

[17] الباقلاني :إعجاز القرآن،ص13.

[18] ينظر:مصطفى مسلم:مباحث في إعجاز القرآن،دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض،الطبعة الثانية، 1996م،ص73.

[19] ينظر:وليد محمد مراد:نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني،ص27.

[20] سورة الإسراء،الآية 88.

[21] الرماني والخطابي والجرجاني: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن في الدراسات القرآنية والنقد، ص23.

[22] المرجع نفسه،ص70.

[23] المرجع نفسه،ص24-25.

[24] الرماني والخطابي والجرجاني: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن في الدراسات القرآنية والنقد، ص26-27.

[25] المرجع نفسه،ص28.

[26] هو محمد بن إدريس الشافعي،والقول كاملا هو:"ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا،وأكثرها ألفاظا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها، حتى لا يكون موجودا فيها من يعرفه".

[27] ينظر:محمد بن إدريس الشافعي:الرسالة،تحقيق:محمد أحمد شاكر،مكتبة دار التراث القاهرة،الطبعة الثالثة،2005م،ص128.

[28] سورة عبس،الآية31.

[29] الرماني والخطابي والجرجاني: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن في الدراسات القرآنية والنقد، ص36.

[30] السيد أحمد الهاشمي:جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع،شرح وتحقيق:حسن حمد،دار الجيل،بيروت،لبنان،ص30.

[31] عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دراسة قرآنية لغوية وبيانية، دار المعارف، الطبعة الثامنة، 1984م، ص110.

[32] ينظر:الباقلاني: إعجاز القرآن، ص 47 -51.

[33] ينظر: شوقي ضيف:البلاغة تطور وتاريخ،ص114-115.

[34] محمود أحمد نحلة:في البلاغة العربية، علم المعاني،دار العلوم العربية،بيروت، لبنان،الطبعة الأولى،1990م،ص14-15.

[35] ينظر:عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ:الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق،دراسة قرآنية لغوية وبيانية،ص23.

[36] ينظر: فضل حسن عباس:البلاغة العربية فنونها وأفنانها،علم المعاني،دار الفرقان للطباعة والنشر،الطبعة الرابعة،1997م،ص73.

[37] محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون الشركة المصرية للنشر لونجمان، الطبعة الأولى، 1994م،ص 64.

[38] محمود أحمد نحلة: في البلاغة العربية، علم المعاني، دار العلوم العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1990م، ص 20.

[39] ينظر:عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ:الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق،دراسة قرآنية لغوية وبيانية، ص122- 124.

[40] رجاء عيد:فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور،منشأة المعارف، الإسكندرية،الطبعة الثانية،ص34.

[41] فخر الدين محمد بن عمربن الحسين الرازي:نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز،تحقيق:نصر الله حاجي مفتي أوغليدار صادر، بيروت،لبنان،الطبعة الأولى،2004م،ص25.